



دلائلة التراكيب النحوية

الدكتور : بن شريف محمد - جامعة ابن خلدون - تيارت

الدكتور عرابي أحمد - جامعة ابن خلدون - تيارت

ملخص البحث

لاشك في أن العلاقة بين المنطوق اللغوي للنص، و بين المعنى الذي يفيدته أمر طبيعي، و لكن فهمه لا يبدأ من القراءة البسيطة و السطحية، بل إنّ عملية التواصل بين القارئ و صاحب النص تتم عن دوال و علامات كثيرة، منها التراكيب اللغوية بما تحتوي عليه من سنن و تقنيات، وما تكتنفها من افتراضات تعبيرية، وروابط ثقافية تربط بين المتأمل والخطاب، وهنا تكمن شفرة الرسالة، التي يواجهها المتلقي بكل جهد و معاناة، و هي الفكرة الأساسية التي يركز عليها هذا البحث.

Abstract

There is no doubt that the relationship between the operative language of the text, and between the meaning informing him is normal, but his understanding does not start reading simple and superficial, but that the communication process between the reader and the text is on the functions and many signs, including language, including compositions containing it of Sunan and techniques, and fraught with assumptions of expression, and cultural ties between the meditator and the speech, and here lies the code letter, which is facing the receiver every effort and suffering, and the basic idea is the focus of this research.

تمهيد :

إن التعدد القرائي مشروع إنساني تُقرّه سنن الله في البشر، إذ أنّ غاية كل متدبر للمقروء هي كشف عالم النص، و الوقوف على مقصديته، و الوصول إلى هذه الغاية ليس ميسورا؛ لأنّ آليات القراءة هي الأخرى قابلة للاحتمال، مما يدل على زُبّقية لغة الخطاب من جهة، و تأثير العوامل الخارجية

على القارئ من جهة أخرى، كالأحكام المسبقة، و الثقافة، و وجهات النظر الخاصة بكل قارئ، و يعسر على الإنسان أن يتجرد منها، إذ يحاول في كثير من الأحيان أن يجعل النص قناعاً و سنداً له، و قد يكون ذلك من حقه، كما قد يكون الرأي المخالف له أيضاً حقاً.

و يرجع ذلك إلى اللغة العربية التي امتازت كنوز ضخمة من اللطائف و الإيجاءات والأساليب المثيرة للدهشة، أو ما يسمى باللافتات الدلالية، و تشمل كل ما يتعلق باللغة من أصوات، و كلمات، و صيغ، و تراكيب، و صرف و نحو و دلالة و هي عبارة عن إشارات ضوئية تثير انتباه القارئ و تستوقفه.

الدلالة اللغوية وأثرها في المعنى:

و مصطلح التركيب يتعلّق بالحركات والحركات الإعرابية، وما ينبو عنها من حروف وكل أدوات الربط بصفة عامة كحروف الجر والعطف وغيرها. وهذه الآليات اللغوية لها دور في تكوين التراكيب النحوية وما يطرأ عليها من تغيرات على مستوى المبنى والمعنى. "ومن هنا فإن الدلالة لها جانب صوتي يطلق عليه الدلالة الصوتية، وجانب صرفي يطلق عليه الدلالة الصرفية، وجانب نحوي يطلق عليه الدلالة النحوية، وجانب معجمي يطلق عليه الدلالة المعجمية، وجانب سياقي يطلق عليه الدلالة السياقية..والتي لا يستغني عنها اللغوي عند إجرائه عملية التحليل الدلالي للخطاب، فكل دراسة لغوية لابد أن تتجه إلى المعنى، والمعنى هو الهدف، الذي تصوب إليه سهام الدراسة من كل جانب".⁽¹⁾

وما يقتضيه السياق هو تلك التخريجات الدلالية التي تلح عليها ما يحتملها المتدبر للكتاب الله من فهم لا يخرج النص عن المعنى الذي يريد القرآن الكريم وضبط معناه فقد قال الله تعالى: ﴿...فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.⁽²⁾ "أن الرفع والتنوين في كلمة (خوف) أوجه من البناء، وذلك أن اسم (لا) النافية للجنس يبنى على الفتح وتدل في هذه الحالة على نفي جنس اسمها إطلاقاً أو

¹ - علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض حيدر، ص: 29، وينظر ص(30-58) من المرجع نفسه.

² - البقرة : 38.

على معنى العموم في النفي، كقوله " لا رجل في الدّار " نفيت وجود جنس الخوف كله على العموم بل المراد نفيه عنهم في الآخرة فحسب، كذلك كان إعراب (خوف) أليق في المعنى من بنائها".⁽¹⁾

3- دور الإعراب في ضبط الدلالة:

وذكر الزركشي (ت794 هـ) أهمية معرفة التركيب بالنسبة للتعامل مع النص القرآني، وهو من الأمور التي يجب البداية به، وهو معرفة معاني المفردات فقال: " باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى، وهو ما دل المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو".⁽²⁾

ومن الأمثلة التي ذكرها قوله: " ومن شواهد الإعراب قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ...الآية﴾.⁽³⁾ ولولا الإعراب لما عرف الفاعل من المفعول به".⁽⁴⁾

وحسب التعريف السابق أن مصطلح المورفيم يقابله في الدرس اللغوي القديم الحركات والحركات الإعرابية وما ينوب عنها من حروف وكل أدوات الربط بصفة عامة كحروف الجر والعطف وغيرها. وهذه الآليات اللغوية لها دور في تكوين التراكيب النحوية وما يطرأ عليها من تغيرات على مستوى المبنى والمعنى". ومن هنا فإن الدلالة لها جانب صوتي يطلق عليه الدلالة الصوتية، وجانب صرفي يطلق عليه الدلالة الصرفية، وجانب نحوي يطلق عليه الدلالة النحوية، وجانب معجمي يطلق عليه الدلالة المعجمية، وجانب سياقي يطلق عليه الدلالة السياقية..والتي لا يستغني عنها اللغوي عند إجرائه عملية التحليل الدلالي للخطاب، فكل دراسة لغوية لابد أن تتجه إلى المعنى، والمعنى هو الهدف، الذي تصوب إليه سهام الدراسة من كل جانب".⁽⁵⁾

¹ - ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، أحمد سليمان بإقوت، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، الطبعة الأولى، سنة (1401هـ - 1981م)، ص: 248

² - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ج2/ 173 .

³ - البقرة: 37.

⁴ - البرهان في علم القرآن، الزركشي، ج2/ 176.

⁵ - علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض حيدر، ص: 29، وينظر ص(30-58) من المرجع نفسه.

ويكون المورفيم عنصراً صوتياً في الكلمة أو التركيب وله أهمية في رفع الإلتباس الذي قد يظهر على معنى الجملة، "حين نقرأ قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...الآية﴾⁽¹⁾." جاءت الضمة وهي وحدة صوتية، للتعبير عن الفاعل الذي يقوم بالخشية والفتحة وهي وحدة صوتية تدل على معنى تقع عليه الخشية بالإضافة إلى القرينة المعنوية التي تحدد المعنى⁽²⁾. والذي يمينا في هذه الآلية هو الجانب التطبيقي.

إن للمورفيم أثراً واضحاً على إحداث المعنى وتغييره وقد يترتب عليه المعنى أو يلتبس ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...الآية﴾⁽³⁾، فلو نصب المتأخر (ربه) ورفع المتقدم (إبراهيم) لأدى المعنى إلى ما لا يجوز في حق الله، ومن هنا تبدو دلالة الحركة (المورفيم) في ضبط المعنى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾⁽⁴⁾، قال ابن قتيبة: "ولو أن قارئاً قرأ وترك طريق الإبتداء بآنا، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب "أن" بالقول كما ينصبها بالظن، لقلب المعنى عن حمته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبي -عليه الصلاة والسلام- محزوناً لقولهم: "إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون"، وهذا كفر ممن تعمدوا وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به..."⁽⁵⁾.

وأثر الإعراب في المعنى لا يقتصر على النص القرآني فحسب، بل نجده في غيره من النصوص الأخرى. فقد روى ابن قتيبة أيضاً قوله -عليه الصلاة والسلام-: "لا يقتل قرشي -صبراً بعد اليوم". ثم قال: "فمن رواه جزماً أي يقتل" - أوجب ظاهر الكلام أن القرشي لا يقتل إن ارتد ولا يقتص منه إن

¹ - فاطر: 28.

² - علم الدلالة والمعجم العربي، عبد القادر بوريشة، ص: 34

³ - البقرة: 124.

⁴ - يس: 76.

⁵ - تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص: 14، 15.

قتل، ومن رواه رفعا انصرف التأويل إلى الخبر عن قریش أنه لا يرتد منهم أحد عن الإسلام فيستحق القتل، ثم قال: أفما ترى "الإعراب" كيف فرق بين هذين المعنيين⁽¹⁾.

والمراد من الحديث أن القریشي لا يعود إلى الكفر فيقتل على كفره صبرا، لا أنه لا يقتل قرشي صبرا على الإطلاق، فكم قتل منهم في الإسلام صبرا⁽²⁾. وهذا ترجيح لدلالة المورفيم بتوظيف القرائن الاجتماعية والتاريخية، مما يدل على أنهم كانوا يراعون الواقعية في الخطاب.

إن الانتقال من الضمة إلى السكون وهي من الوظائف النحوية، وهذا أخذا بمعيار الدلالة جنبا إلى جنب مع معيار الحركة الإعرابية، وإذا احتمل اللفظ أكثر من حركة أدى ذلك إلى الاختلاف في المعنى. فهذه العلاقات قرائن مساعدة على إدراك النص، ويبقى الترجيح لهذه العلامة أو تلك للسياقات المختلفة. من هنا تظهر صلة الحركات الإعرابية بالمعنى عند القدماء، ولهذا يجب أن تدرس هذه العلامات على أنها دوال على معان، فبذلك يختلف المعنى الذي يقصد إليه المتلقي أو المنتج للنص فيختلف الإعراب تبعاً له.

3- كفاءة التركيب وأثرها في قراءة النص:

وقد تثير الظاهرة التركيبية بعض الإشكالات فيما يتعلق في فهم بعض النصوص وتعرض الشاطبي لهذه القضية وذلك في ربطه بين الخبر أي النص وبين مقررات الدين الواردة في خبر الله تعالى، وما استدلل به في هذا المكان قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾⁽³⁾. فقال الشاطبي: "إن حمل على أنه إخبار، لم يستمر مخبره، لوقوع سبيل الكافر على المؤمن كثيرا بأسره وإذلاله. فلا يمكن أن يكون المعنى إلا على ما يصدقه الواقع ويطرد عليه، وهو تقرير الحكم الشرعي فعليه يجب أن يحمل"⁽⁴⁾.

¹ - المصدر نفسه، ص: 15.

² - المصدر نفسه، ص: 15. هامش

³ - النساء: 141.

⁴ - الموافقات، الشاطبي، ج 89/1.

لقد صرح النص بأن المؤمن لا يغلبه الكافر أبداً، ولكن ربط ظاهر النص بواقع المسلمين فإننا نجدهم مغلوبين مهزومين من الناحية الواقعية، فوقع تعارض بين ما قرره النص و بين ما هو مشاهد في الواقع.

وهذا يبين لنا أن دلالة التركيب اللغوي في السياق قد لا تكفي لضبط المعنى وعليه يقام بعملية تأويلية الهدف منها الموافقة بين النص و الواقع لذى يتحدث عنه فإذا وعد الله المؤمنين بالنصر الدائم على الكافرين إلى يوم القيامة وهو وعد من الله فإذا تخلف معنى النص عن جريانه في الواقع فلا بد من البحث في دلالة النص على الرغم من وضوحه من الناحية التركيبية، ولهذا كتب في التعليق على هذه الآية كحل للإشكالية الدلالية التي أثارها بأنه: "يجوز بقاء الآية على معنى الخبر، ويكون المراد من المؤمنين جماعة المسلمين العاملين بما يقتضيه الإيمان الراسخ من الاستعداد والإتحاد والثبات"، و المسلمين لا يغلبون ماداموا كذلك".⁽¹⁾

قال الكلبي: "قال الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وغيره: "ذلك في الآخرة، وقيل السبيل هنا الحجة البالغة".⁽²⁾ وأطاف الرازي مدعماً هذا التأويل قائلاً: "والدليل أنه عطف على قوله: فالله يحكم بينكم يوم القيامة، الثاني: أن المراد به في الدنيا ولكنه مخصوص بالحجة والمعنى أن حجة المسلمين غالبية على حجة الكل و ليس لأحد أن يغلبهم بالحجة".⁽³⁾

وأردت أن أبين من خلال عرض هذه التأويلات أن دلالة التركيب قد لا تكفي وغير قادرة على تحديد المعنى وحدها إلا إذا أضيفت ضائم أخرى وهذه الضائم قد تكون نصاً أو واقع مشاهد وهو هنا بمثابة المقام. وعلى الرغم من أن الزركشي مثلاً -قال: "قالوا: والإعراب يبين المعنى؛ وهو الذي يميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين".⁽⁴⁾ إلا أن النظم قد لا يكون كافياً ولهذا نجد يقول في موضع آخر مبيناً أهمية معرفة دلالة التركيب بالنسبة للناظر في كتاب الله حيث قال: "وعلى الناظر في كتاب

¹ - الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي، ج 89/1. هامش.

² - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، ج 161/1.

³ - التفسير الكبير، الرازي، ج 333/3.

⁴ - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج 302/1.

الله، الكاشف عن أسرارهِ، النظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحملها، كونها مبتدأ أو خبراً، أو فاعلة أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير أو جمع قلة أو كثرة إلى غير ذلك⁽¹⁾.

ولهذا كان الأصوليون يستدلون على القواعد الأصولية بالحجة اللغوية من خلال النص القرآني نفسه، وقام الاستدلال على هذه القواعد من حيث المعاملة مع الخطاب القرآني هو المقصود الأعظم وتبين أن المعنى الإفرادي لا يعاب به إذا فهم المعنى التركيبي بدون التشبث بحرفه⁽²⁾.

إلا أن هذا المعنى التركيبي لا يمكن الاعتماد عليه منعزلاً عن غيره من النصوص الأخرى التي بينه وبينها مناسبة ما. وتلك المناسبة قد تكون على مستوى المبنى والمعنى أو الموضوع. ولقد اخترت بعض القواعد الأصولية واللغوية على سبيل المثال لا الحصر - ودرستها من الناحية الدلالية وذلك من خلال بعض النصوص القرآنية المتعلقة بكل قاعدة كدلالة الأمر على الوجوب. ودلالة الأمر وإرادة الأمر ودلالة الواو على الترتيب أو غيره، وأخيراً دلالة عود الاستثناء على الجمل المتعاطفة قبل إلا.

وقد تعرض العلماء لهذا النوع من الدلالات ولكن بدون ذكر للمصطلح ومنهم الرازي عندما حاول أن يجد تفسيرات للمورفيم "ن" في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ... الآية﴾⁽³⁾.

فقال: "لماذا عبر بنون الجمع بدلا من ألف المتكلم المفرد" "أَعْبُدُ" وكل من "ن" و"أ" مورفيم متصل من السوابق فأجاب قائلًا (الأول): إن هذه النون نون العظمة فكأنه قيل له: متى كنت خارج الصلاة فلا تقل "نحن".... أما لما اشتغلت بالصلاة وأظهرت العبودية لنا فقل "نَعْبُدُ"، ليظهر للكل أن من كان عبداً لله ملك الدنيا والآخرة. (الثاني): ولو قال: "إِيَّاكَ أَعْبُدُ" لكان ذاك تكبراً ومعناه أي أنا العابد، أما لما قال: "نعبد" قال: أنا واحد من عبيدك فالأول تكبر والثاني تواضع ومن التواضع لله رفعه. (الثالث): إن الرجل إذا كان يصلي في الجماعة بالجماعة فيقول "نعبد" والمراد منه ذلك الجمع وجميع الملائكة الذين يعبدون الله. (الرابع): إن المؤمنين إخوة فلو قال: "أعبد" لكان قد ذكر عبادة نفسه ولم يذكر

¹ - المصدر نفسه ، الزركشي، ج 302/1.

² - المدخل إلى بلاغة النص، مصطفى السعدي، ص: 21.

³ - الفاتحة : 05.

عبادة غيره أما مع النون فيذكر عبادة المؤمنين شرقا وغربا وهو السعي في إصلاح جميع مهمات المؤمنين؛ (الخامس): كأنه لما قال للعبد لما فوضت بقولك: "الحمد لله... إلى إياك نعبد" فقد عظم قدرك، فلا تقتصر - على إصلاح مهماتك وحدك ولكن على إصلاح مهمات جميع المؤمنين؛ (السادس): كأن العبد يقول: ما بلغت عبادتي إلى حيث أن تذكر وحدها لأنها ممزوجة بالتقصير ولكن أخطأها بعبادة جميع العابدين وأذكر الكل بعبارة واحدة، وكأنه يقول: فلست وحيدا في هذه العبادة ففيها الأنبياء والملائكة والصالحون فلا تردني لأني لست وحيدا".⁽¹⁾

وهذا من الرازي تبرير لاستعمال المورفيم الصغير المتصل، وما يوحي به من دلالات عميقة وله علاقة بما يسمى بالوحدة الدلالية كحروف الجر وغيرها.

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿...فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنَ ذِكْرِ اللَّهِ... الآية﴾،⁽²⁾ "فإن قلت ما الفرق بين (من) و(عن) في هذا؟ قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله فالمعنى ما ذكرت من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت عن ذكر الله فالمعنى غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه ونظيره سقاه من الغيبة: أي من أجل عطشه".⁽³⁾

ولو لم نلجأ إلى قاعدة الإبدال لما استقام المعنى مع المورفيم "من" التي تعني أن ذكر الله سبب إلى قساوة القلوب، مع أننا نعلم أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية والاطمئنان، ﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.⁽⁴⁾؟! فمنهم من أجاب عن الإشكال الدلالي باللجوء إلى ظاهرة التبدل الدلالي، ومنهم من ترك النص على ظاهره وأول تأويلا يتناسب مع الحرف المستعمل "من" فقد قال الرازي: "إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطباع البهيمية والأخلاق الدميمة، فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة... والدليل على ذلك، أن الفاعل الواحد قد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوالب، فحرارة الشمس تلين الشمع وتغمد الملح، وقد نرى إنسانا واحدا يذكر كلاما

¹ - التفسير الكبير، الرازي، ج 14/1.

² - الزمر: 22

³ - الكشف، الزمخشري، ج 3/394.

⁴ - الرعد: 28.

واحدا في مجلس واحد فيستطيعه واحد ويستكرهه غيره، وما ذاك إلا لاختلاف جواهر النفوس. فإذا عرفت هذا لم يبعد أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة، ويوجب القوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية".⁽¹⁾

وهناك من لجأ إلى قياس الآية على كلام العرب من قولهم، حدثته من فلان، أي عن فلان. وحاول الرازي حاول تفسير دلالة الحرف بحيث وجد لها تخريجا ناسب ظاهر النص على ما هو عليه، أي بدون استبدال "من" ب"عن"، وهذا في اعتقادي حسن، وبذلك جنب نفسه من التحريف، وهو يحافظ بذلك على ظاهر النص ولا يتصرف فيه، ولكن حتى الذين تصرفوا قالوا: بأن "من" بمعنى "عن" إن خرجوا في الظاهر عن ظاهر النص، إلا أنهم لم يخرجوا عن شائع عبارات العرب، إذ لا سبيل إلى فهم كتاب الله فيها صحيحا ومعرفة مقاصده معرفة سليمة، إلا بالعودة إلى سننهم في كلامهم، وهي التي استقى منها القرآن ألفاظه، لأن هناك من الكلام ما لا ينجلي إلا بالسماع، وعليه فإن استبدال بعض الحروف ببعض أيضا من كلامهم والتأويل على هذا الأساس صحيح هو الآخر.

وإذا سألنا لماذا استعمل القرآن الكريم الحرف بدل الآخر، كان الجواب، هكذا تكلمت العرب أو هكذا أراد الله أو هما معا، إذ القرآن كلام الله على عادة العرب وعرفهم، وعليه فإن السؤال بالصيغة العقلية لماذا قال كذا ولم يقل هكذا؟ لم يعد ذا معنى، ولا يعني هذا أن التأويل يتميز بالعبثية وعدم الانضباط، بل إن التأويل له قوانين تحكمه ومن هذا ضوابط قواعد كلام العرب، ففي قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ... الآية﴾.⁽²⁾

فلو كانت (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ للتبعض لاقتضى أن بعض الذنوب تغفر وبعضها لا يغفر وقد يكون الذي لا يغفر هو الكبائر، ولكن في الآية عطف على ما بعدها وهو قوله

¹ - تفسير الرازي، ج 7/242.

² - الاحقاف: 31.

تعالى: ﴿وَيُجْزَمُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذه قرينة يستدل بها على دلالة (من) على ابتداء الغاية. قال الزمخشري: "إنما بعض المغفرة لأن من الذنوب ما لا يغفره الإيمان كذنوب المظالم ونحوها".⁽¹⁾

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿...وَإِنْ يَقَاتِلْكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾⁽²⁾ وقد تساءل الرازي: هلا جزم "لا ينصرون"؟ "قلنا عدل به عن حكم الجزاء إلى الإخبار ابتداء. كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون والفائدة فيه، أنه لو جزم لكان نفى النصر مقيد بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم لا يجدون النصر بعد ذلك قط بل يبقون في الذلة والمهانة أبدا دائما".⁽³⁾

ثم أراد الرازي أن يؤول الآية تأويلا نحويا معقدا على ظاهرة الحذف الافتراضي لكي يطابقه معنى الصناعة النحوية فقال: "ما الذي عطف عليه قوله: (ثم لا ينصرون) (الجواب): هو حملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوك يهزموا ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، وإنما ذكر لفظ ثم لإفادة معنى التراخي في المرتبة، لأن الأخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولييتهم الأدبار".⁽⁴⁾

و قال القرطبي: (ت، 671هـ): "وإن يقاتلوك يولوكم الأدبار" يعني منهزمين وتم الكلام "ثم لا ينصرون" مستأنف، فلذلك ثبت فيه النون".⁽⁵⁾

ودعم صاحب كتاب التسهيل هذا المعنى فقال: "قوله "لا ينصرون" إخبار مسأنف غير معطوف على "يولوكم الأدبار" وفائدة ذلك أن تولية الأدبار مقيد بوقت القتال، وعدم النصر على الإطلاق، وعطف الجملة على جملة الشرط والجزاء، "ثم" للترتيب لأحوال لأن عدم نصرهم على الإطلاق أشد من توليهم الأدبار حين القتال".⁽⁶⁾

¹ - الكشف، الزمخشري، ج3 / 527.

² - آل عمران: 111

³ - التفسير الكبير للرازي : ج3/ 28

⁴ - المصدر نفسه، ج3/ 28.

⁵ - جامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج4/ 74.

⁶ - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن جزي الكلي دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ج4/ 160

ويطلق على هذا التأويل "الدلالة النحوية العامة"، "وهي الدلالة المحصلة من استخدام الألفاظ أو الصور الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التحليلي أو التركيبي، ويطلق عليها أيضا الوظائف النحوية أو المعاني النحوية"⁽¹⁾ وهي المعاني العامة المستفادة من الجمل والأساليب بشكل عام. وهذه الوظائف النحوية العامة (الدلالة النحوية) تحصل في الأغلب الأعم باستخدام الأدوات، وتكمن أهمية تلك الأدوات في أنها كلمات معجمية أو "مورفيات"⁽²⁾ حرة تعامل معاملة اللفظ داخل النظم، ومنها على سبيل المثال حروف المعاني بصفة عامة، إلا أن دلالة هذه المورفيات لا يمكن إدراكها مستقلة عن السياق وهكذا تناولها العلماء الأقدمون، وكان هدفهم من ذلك أن المعنى هو الغاية التي ينشدها كل متلق، وما اللفظ إلا وسيلة لبلوغ المعنى، فهو خادم أو تابع له ولذلك وظفوا ما يطلق عليه "القرينة" ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوجِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.⁽³⁾

ويقوم التأويل حسب المقتبس السابق على دائرتين الدائرة اللغوية والأصول الشرعية إلا أن هذه الأصول الشرعية لاتخرج هي الأخرى عن الدائرة اللغوية بل هي مرتكزها والأساس الذي تعتمد وإذا كانت الدلالة اللفظية أو التركيبية، لا تفيد اليقين كما قيل: "...الدليل اللفظي لا يفيد اليقين لأنه مبني على نقل اللغة والنحو والصرف وعدم الاشتراك والمجاز والإضمار والنقل أي يكون منقولاً من الموضوع له إلى معنى آخر..."⁽⁴⁾

1- علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، الدكتور فريد عوض جيدر، مكتبة النهضة المصرية، 1999م ص45 وينظر اللغة العربية، معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1973م ص: 178. وينظر العربية والوظائف النحوية، دراسة في إتساع النظام والأساليب، الدكتور ممدوح عبد الرحمن الزمالي، دار المعرفة الجامعية سنة 1996 م ص : 104.

2-المورفيم هو عبارة عن صائت أو صائت + صائت وهو ما يتصل بالكلمة من السوايق والالواح فالأول مثل أحرف المضارعة في النحو العربي والثاني مثل الضمائر المتصلة. ينظر أبحاث في اللغة و العروض أحمد سليمان الياقوت، دار المعرفة الجامعية. ص: 38.

3- الشورى : 03

4- شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين مسعود بن عمر التفتراني الشافعي ضبط وتخرج، الشيخ زكرياء عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة (1416هـ-1996م)، ج 240/1..

وإذا كانت الدلالة اللغوية لا تفيد اليقين انعدمت فائدة الخطاب الذي نزل به القرآن، ولكن دلالتها ظنية على التوقيت حتى توجد الأدلة التي تنقلها إلى اليقين أو إلى أحد الاحتمالين.

ذلك كان عطفا على قوله: "برؤوسكم" وقراءة الخفض قراءة صحيحة سبعية، فيجوز التأويل بالمسح عندهم بهذا الاحتمال الذي جاء من هذه القراءة⁽¹⁾.

وهذا ما كان يراعيه الرازي عندما كان يؤول نصوص القرآن الكريم ومن ذلك -مثلا- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾⁽²⁾.

فاللفظ الذي يثير الانتباه قوله تعالى ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ خطايا للنبي صلى الله عليه وسلم - وإذا كان النبي لا يتوقع منه عدم التقوى، فكيف يخاطب بالأمر الذي يدل في ظاهره على عدم امتثال المأمور به، و في اللغة لا يصح أن يقال لمن ارتكب الفعل إفعل. لأن النبي عليه الصلاة والسلام - كان متقيا فما التأويل الذي يناسب دلالة اللفظ على المعنى المقصود من الشارع الحكيم؟

أجاب الرازي بقوله: "إنه أمرٌ بالمداومة على التقوى، فإنه يصح أن يقول القائل للجالس: اجلس هاهنا إلى أن أجيئك، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم أي دم على ما أنت عليه"⁽³⁾.

إلا أن تأويل الرازي لا يحل المعضلة الدلالية من حيث اللغة، لأننا لا نقول للساكت اسكت إلا إذا توقعنا منه الكلام، ولا نقول للجالس اجلس إلا إذا توقعنا منه القيام، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - كان متقيا فما الوجه في ذلك؟ فأجاب الرازي عن السؤال بقوله: "هو أن النبي - صلى الله عليه وسلم -، كان كل لحظة يزداد تقوى وعلمًا ومرتبته حتى كان حاله بالنسبة إلى ما هو عليه تركا للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة، فقوله: "اتق الله" على هذا أمر بما ليس فيه"⁽⁴⁾.

¹ - تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، أديب صالح، ج 1/391.
² - الأحزاب، الآية (1، 2).

³ - التفسير الكبير، للرازي ج 6/56.

⁴ - المصدر نفسه، ج 6/56.

وقد ذهب الزمخشري (ت538هـ) إلى ما ذهب إليه الرازي فقال: "اتق الله" واطب على ما أنت عليه من التقوى واثبت عليه وازدد منه، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره".⁽¹⁾

وقال أبو حيان (ت745هـ): "نزلت تحذيرا له وتنبيها له على عداوتهم لأن اليهود كانوا يظهرهم النصائح في طرق المخادعة، ولخلقهم الكريم وحرصه على ائتلافهم ربما كان يسمع منهم، وهذا منه لحرصه على إيمانهم ولرافته بعباد الله حتى ولو كانوا مشركين ومنافقين، وهذا التأويل يقتضيه ظاهر اللفظ".⁽²⁾

وما يرد رأي أبي حيان ما ورد في النص من القرينة اللفظية التي اشتمل عليها السياق اللغوي وهي لفظة "النبي" وهي صارقة أيضا إلى المعنى الذي ذهب إليه كل من الرازي والزمخشري وتبين أن اللفظ لا يحمل على ظاهره، لأن النبي معصوم والعصمة تقتضي ألا يحتمل منه عدم التقوى، وحتى لا تصير دلالة اللفظ على ظاهره من باب تحصيل الحاصل الذي يجب أن ينزه عنه القرآن الكريم، وعلى الرغم من هذه التأويلات فإن دلالة الأمر في الآية مازالت في حاجة إلى جواب.

وتعرض الشيخ الصابوني وهو من الأشعرية المعاصرين في كتابه "أحكام القرآن" إلى تفسيرها حيث قال: "إن الأمر خطاب للرسول -عليه الصلاة والسلام- موجه إليه في الظاهر، والمراد به أمته، بدليل صيغة الجمع التي ختمت الآية الكريمة الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾"⁽³⁾ قالوا وفي قوله "تعملون" فيه التفات⁽⁴⁾ من ضمير المفرد إلى الجمع. وإذا أولنا "واو" الجماعة على مخاطبة الواحد بضمير الجمع للتكريم والتشريف وهو الشائع في اللغة العربية، فإن المشكلة الدلالية تبقى دائما في حاجة إلى مناقشة. ولهذا رأينا الإمام الرازي - مثلا - يستعين بالقرائن الخارجية عن النص وهي القرائن غير المذكورة في السياق نفسه بل وردت في موضوع آخر، وقد تكون هذه القرائن آية كريمة أو حديثا شريفا. وهو ما يطلق عليه في علم الدلالة: "القرائن اللفظية المنفصلة".⁽⁵⁾

1_ الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج3/248.

2_ النهر المار من البحر المحيط، للإمام أبي حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور عمر الأشقر، دار الجليل بيروت، الطبعة الأولى. سنة 1416هـ-1995م، ج4/500.

3_ روائع البيان في أحكام القرآن للصابوني. مكتبة الغزالي، مؤسسة مناهل العرفان. الطبعة الثالثة سنة 1400هـ-1980م، ج2/60.

4_ الالتفات: هو نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمير، ينظر اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشف اصطلاحات

الفنون الشيخ محمد علي بن علي البهاوي بيروت المكتبة الإسلامية، ج5/1290.

5_ ينظر علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية. الدكتور فريد عوض حيدر. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة سنة 1999م، ص:103.

1. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ص: 44.
2. كتاب التعريفات، الجرجاني الشريف، ص: 56.
3. قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، طبعة أولى، سنة 1987م
4. ص: 120
5. قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، طبعة أولى، سنة 1987م ص: 120
6. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ج 2 / 173 .
7. علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض حيدر، ص: 29، وينظر ص(30-58) من المرجع نفسه.
8. البقرة: 38.
9. ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، أحمد سليمان ياقوت، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، الطبعة الأولى، سنة (1401هـ - 1981م)، ص: 248
10. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ج 2 / 173 .
11. البقرة: 37.
12. البرهان في علم القرآن، الزركشي، ج 2/176.
13. علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض حيدر، ص: 29، وينظر ص(30-58) من المرجع نفسه.
14. فاطر: 28.
15. علم الدلالة والمعجم العربي، عبد القادر بوريشة، ص: 34
16. البقرة: 124.
17. يس: 76.
18. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص: 14، 15.
19. المصدر نفسه، ص: 15.
20. المصدر نفسه، ص: 15. هامش
21. النساء: 141.
22. الموافقات، الشاطبي، ج 1/89.
23. الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج 1/89. هامش.
24. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، ج 1/161.
25. التفسير الكبير، الرازي، ج 3/333.
26. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج 1/302.
27. المصدر نفسه، الزركشي، ج 1/302.
28. المدخل إلى بلاغة النص، مصطفى السعدي، ص: 21 .
29. الفاتحة : 05.



30. التفسير الكبير، الرازي، ج 1/14.
31. الزمر: 22
32. الكشف، الزمخشري، ج 3/394.
33. الرد: 28.
34. تفسير الرازي، ج 7/242.
35. الاحقاف: 31.
36. الكشف، الزمخشري، ج 3/527.
37. آل عمران: 111
38. التفسير الكبير، للرازي: ج 3/28
39. المصدر نفسه، ج 3/28.
40. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 4/74¹.
41. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن جزي الكلي دار الكتاب العربي بيروت لبنان. ج 4/160
42. علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، الدكتور فريد عوض جيدر، مكتبة النهضة المصرية، 1999م ص 45 وينظر اللغة العربية، معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1973م ص: 178. وينظر العربية والوظائف النحوية، دراسة في إتساع النظام والأساليب، الدكتور ممدوح عبد الرحمن الزمالي، دار المعرفة الجامعية سنة 1996 م ص: 104.
43. المورفيم هو عبارة عن صائت أو صامت + صائت وهو ما يتصل بالكلمة من السوايق واللاحق فالأول مثل أحرف المضارعة في النحو العربي والثاني مثل الضائر المتصلة.
44. ينظر أبحاث في اللغة و العروض أحمد سليمان الياقوت، دار المعرفة الجامعية. ص: 38. الشورى: 03
45. شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين مسعود بن عمر التفازاني الشافعي ضبط وتخرج، الشيخ زكرياء عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة (1416هـ-1996م)، ج 1/240..
46. تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، أديب صالح، ج 1/391.
47. الأحزاب، الأيات (1، 2).
48. التفسير الكبير، للرازي ج 6/56.
49. المصدر نفسه، ج 6/56.
50. الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج 3/248
51. النهر المار من البحر المحيط، للإمام أبي حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور عمر الأشقر، دار الجليل بيروت. الطبعة الأولى. سنة 1416هـ-1995م، ج 4/500.
52. روائع البيان في أحكام القرآن للصاوي. مكتبة الغزالي، مؤسسة مناهل العرفان. الطبعة الثالثة سنة 1400هـ-1980م، ج 2/60.
53. الإنشآت: هو نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمير، ينظر اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشف اصطلاحات الفنون الشيخ محمد علي بن علي التبانوي بيروت المكتبة الإسلامية، ج 5/1290.
54. ينظر علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية. الدكتور فريد عوض جيدر. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة سنة 1999م. ص: 103.